. وكادوا أن يعهدوا وجهه كجزء لا ينفصل عن القرية كلها : وجهه المربع يعترضه حاجبان يتصلان ببعضهما بأخدود يعين طرف أنفه العلوي ،

وأنفه المفلطح تدور بأسفله دائرتان واسعتان فوق شارب رمادي كثيف ،

. أما ذقنه فلقد كانت عريضة حادة ،

بردت رقبته الثخينة بردة .

إن سعيد الحمضوني نادراً ما يتكلم عن ماضيه ،

وما ينفك يعتقد أن غداً سيكون أحسن من اليوم ،

بشيء كثير من المبالغة ،

أخبار سعيد الحمضوني أيام كان يقود حركات ثورية في ۱۹۳۹ ،

يقولون - هناك في القرية - إن سعيداً أطلق سراحه من المعتقل لأنه لم يدن .

. ويقال إنه لم يقبض عليه بعد ،

ويربط الصبيان بوجهه كل أحاسيسهم

وتخيلاتهم التي يرسمونها للرجل الممتاز .

وليد المغامرة القاسية .

. لقد عاد سعيد مؤخراً من يافا ،

وأحضر معه رشاشاً من طراز الماشينغن » ،

كان قد قضى قرابة أسبوع كامل يجمع ثمنه من التبرعات ،

ومع أن سكان السلمة كانوا على يقين كبير أن ثمن مدفع من هذا الطراز لا يمكن أن يجمع من التبرعات ،

فلقد آثروا أن يسكتوا ،

لأن وصول المدفع الرائع أهم بكثير جداً من طريقة وصوله ،

فالقرية في أشد الحاجة إلى أي نوع من أنواع السلاح ،

فكيف إذا حصلت على سلاح من نوع جيد ؟ لقد عرف سعيد الحمضوني ماذا يشتري ! إن هذا المدفع ،

مدفع « الماشينغن » ،

كفيل برد أي هجوم يهودي مسعور ،

إنه نوع راق من السلاح ،

والقرية في أشد الحاجة إليه .

. فلماذا يفكرون في طريقة وصول المدفع ؟ ولكن سكوت رجال السلمة ،

لقد بقيت المشكلة بالنسبة لهن تلح إلحاحاً قاسياً ،

ولما لم يجدن من يدلهن على حقيقة الأمر ،

استطعن أن يقنعن أنفسهن أن سعيد الحمضوني كان قد سلم في ثورة ۱۹۳۹ مدفعاً من هذا الطراز أبلى من خلفه بلاء حسناً ،

ثم خبأه في الجبال إلى أن آن أوان استعماله من جديد .

ولكن التساؤل بقي متضمناً في أعمق أعماق سكان السلمة ،

لم يكن من اليسير أن يجمع الإنسان ثمن مدفع من

طراز الماشينغن .

. إذن فمن أين أتي سعيد الحمضوني بهذا المدفع ؟ نعم .

من أين ؟ المهم أن هذا المدفع الأسود صار قوة هائلة تكمن في نفوس أهل السلمة ،

وهو يعني بالنسبة لهم أشياء كثيرة ،

أشياء كثيرة يعرفونها ،

وأشياء أكثر لا يعرفونها .

. ولكنهم يشعرون بها ،

. إن كل كهل وكل شاب في السلمة ،

صار بربط حياته ربطاً وثيقاً بوجود هذا المدفع ،

وصار يستمد من صوته المتتابع الثقيل ،

نوعاً من الشعور بالحماية .

. وكما يرتبط الشيء بالآخر ،

ربط الناس صورة المدفع بوجه سعيد الحمضوني المربع ،

ولم تعد تجد من يفصل هذا عن ذاك في حديث الدفاع عن السلمة ،

إن سعيد الحمضوني أصبح الآن ضرورة مكملة .

كانوا يشعرون أنه أداة من أدوات المدفع المعقدة .

. شيء كحبل الرصاص ،

. كالماسورة ،

متماسك لا تنفصل أطرافه عن بعضها .

لقد صار يربط سعيد الحمضوني حياته نفسها ربطاً شديداً بوجود المدفع .

كان المدفع يعني بالنسبة له شعوراً هادئاً بالطمأنينة ،

شعوراً يوحي بالمنعة : فهو دائم التفكير بالمدفع ،

دائم الاعتناء به ،

تكاد لا تراه إلا وهو يدرب شباب القرية على استعماله ،

ويدلهم في نهاية التدريب المكان الذي وضع فيه خرقة لمسح المدفع ،

هذا المكان الذي سيصير - فيما بعد - معتادة .

ومع مرور الأيام بدأ سعيد الحمضوني يتغير .

وبدا كأنه يضمر شيئاً فشيئاً ،

وأحست شباب السلمة أن سعيد الحمضوني صار يبدو أكبر من ذي قبل ،

وأنه صار يفقد هذه الحركة الحية في وجهه وفي صوته .

صامت إلى حد يخيل للإنسان معه أنه نسي كيف كان يتكلم الناس ،

وصار شيئاً مألوفاً أن يجده الناس منطلقاً إلى جنوب السلمة ،

حيث ركز المدفع ،

ليجلس وحيداً بقربه إلى العشية .

. هل كان يعتقد إنسان أنه سيرتجف كذرة من القطن المندوف على قوس المنجد ؟ لقد فتحوا عليه باب داره والصباح يوشك أن ينبلج ،

وتضاخمت أمامه كتلة سوداء ،

وبرز منها صوت أحد رجاله ،

يدور كالدوامة ليبتلع كل إحساس بالوجود : - المدفع .

. لقد أصابه العطب .

. إن ماسورته تتحرك بغير ما توجيه .

وأحس سعيد الحمضوني بقوة جبارة تقتلع من جوفه شيئاً بعز كان يشعر بكل هذا وهو منطلق عبر الحقول الباهتة النائمة في آخر الليل .

. ووصل إلى حيث كان الرشاش يتكئ كالطفل الميت على الأغصان اليابسة ،

إلا طلقات البنادق الهزيلة ،

تحاول عبثاً الوقوف في وجه الهجوم .

وهز سعيد الحمضوني رأسه وكأنه يواسي نفسه بمصاب ابنه ،

ثم فكر أن لا بد من إجراء .

. شيء قوي كالكلابة يجب أن يمسك الفوهة الهاربة إلى بطن المدفع .

. شيء قوي .

. سأشد الماسورة إلى بطن المدفع بكفي .

. لا يوجد أية دقيقة لتضيع في الكلام .

. دعنا نجرب .

. - اطلق ! - سيرانا اليهود وأنت فوق الحفرة .

- اطلق ! - ستحرق كفيك بلهب الرصاص .

. - اطلق .

. اطلق ! وبدأ المدفع يهدر بصوته المتتابع الثقيل ،

ومع صوته المحبوب شعر سعيد الحمضوني بنفسيته التي تغذت طويلاً بالثورة والدم هي ذي تتقدم إليه بتؤدة ،

. وكم هو جميل أن يختار الإنسان القدر الذي يريد .

. وسمع صوته من خلال دقات الرصاص - اسمع أريد أن أوصيك وصية هامة .

. وعاد يصيخ إلى المدفع واستخلص من صوت الرصاص ثقة جديدة ليتابع وهو يحاول أن يمضع ألمه : - قرب قرية أبو كبير ،

. عرفته ؟ حسناً ! لي هناك مبلغ جيد من المال ،

. أن أرجع الأقبضه بعد أن يفحصوا الدم .

. في كل مرة يقولون أنهم يريدون أن يفحصوا الدم كأن دم الإنسان يتغير في خلال أسبوع ونصف .

. إن ثمن المدفع لم يسدد كله .

ستجد اسم التاجر في داري .

لقد دفعت قسماً كبيراً من ثمنه من تبرعاتكم .

. هل تعرف أنهم يشترون الدم بمبلغ كبير ؟ لو عشت شهرين فقط ؟ شهرين آخرين لاستطعت أن أسدد كل ثمنه .

. إنني أعطيهم دماً جيداً .

. خذ حسن وحسين واذهب إلى ذلك المستشفى .

. ألا تريد أن يبقى المدفع عندكم .

. إن حسن وحسين .

. يعرفان كيف يذهبان إلى هناك .

. إن دماءنا جميعاً جيدة .

. جيدة جداً .

. القضية قضية الحليب الذي رضعناه .

. أريد أن أقول لك شيئاً آخر .

. إذا تراجع اليهود هذه المرة .

. تكون آخر مرة يهجمون بها من هذه الناحية .

. فعليكم أن تنقلوا المدفع إلى الشمال .

. لأن الهجوم التالي سيكون من هناك .

. واشتد شعوره بالنار تلسع كفيه بقسوة .

. وأحس إحساساً ملحاً أنه لو كان في صحته العادية لاستطاع أن يقاوم أحسن من الآن ،

وراوده شعور قاتم بالندم على أنه سلك في شراء المدفع ذلك السبيل ،

ولكنه أحس إحساساً دافقاً أن المدفع طرف آخر من الموضوع ،

. إن وجوده يحافظ على أهميته قبل أن يموت هو ،

. فأغمض عينيه ،

وحاول جاهداً أن يحرر نفسه من سجن ذاته كي ينسى ألمه .

. فأسقط ركبته على الأرض في ثقل .

. وعلى صوت الطلقات المتقطعة بانتظام وعنف .

. أحس سعيد الحمضوني بأشياء كثيرة .

. كأنها ملايين الأبر تدخل في شرايينه فتسلبه ما تبقى من دمه ،

ثم شعر بأطرافه جميعها تنكمش كأنها ورقة جافة في نهاية الصيف .

. وبجهد شرس حاول أن يرفع رأسه ليشم الحياة ،

إلا إنه وجد نفسه فجأة في تنور من ذلك النوع الذي يكثر .

والذي عاش إلى جواره فترات طويلة من صباه ،

وجد نفسه في ذلك التنور جنباً إلى جنب مع الأرغفة الساخنة تحمر تحت ألسنة اللهب ،

تطير عن رغيف المرقوق وتلتصق على شفتيه ،

وشعر بيد قاسية تشد رأسه إلى أدنى .

. إلى أدنى .

. إلى أدنى .

. فيسمع لفقرات رقبته صوتاً منتظماً ثقيلاً وهي تتكسر تحت ثقل رأسه .

. وأحس أنه فعلاً لا يريد أن يموت ،

وأعطته الفكرة دفقة أخرى من الحياة .

. فاكتشف أن صوت تكسر فقرات رقبته هو صوت الرصاص الذي ينطلق من المدفع الرشاش ،

وشعر بمواساة من نوع غريب ،

مواساة تشبه تلك التي يراها الوالد في ولد عاش بعد مصرع أخيه ،

وخرج من التنور لكنه شعر أنه لم يلمس الأرض بقدميه .

وشيعته القرية كلها إلى مقره الأخير .